- سـراب -

كنت قد تخرجت حديثـاً من الجامعة أحمل إجازة فلسفة بفخر وخيلاء وكأن ما قرأته عن مثل أفلاطون وديالكتيك هيجل وحدس برغسون شيء مهم جداً قادر على تهديم عـالم عتيـق ببحث ينشر في جريدة، وبناء عالم جديد ببحث آخر. لم يكن الضجر قد دخل الى نفسي بعد فأنا أعيش إستراحة المحارب والمشاريع تتجاذبني بين أن أذهب الـى فرنسا لأكمـل دراساتي العليـا أو أتعاقد مع سفارة السعودية لأصبح مدرساً في مدينة صحراوية أو أدخل كلية التربية لأغدو أستاذاً ثانوياً في الوطن الأم.

شهـرٌ بأكمله قضيته مسترخيـاً في شرفـة بيتي الذي يلفه الصنوبـر من كل جـانب وأمـامه حديقة نسقت بعنايـة فهناك شجرة زيزفون شذاها يفوح في كل الجوار والى جانبها شجـرة غـار ثم عـرائش العنب وتشكيلة الأشجار المثمـرة، كنت آنذاك أحلم بصوت مرتفـع حتى وجدت الأقـارب يحدثوني في شئون خاصة وكأنهم يقرأون في كتاب مفتـوح حتى كانت صبيحة يوم سبت حضر فيها قريبٌ لي مـن بيروت شرب معي القهوة وبادلني النكات وآخر الأخبار ثم دعاني لسهرة في بيته في شارع فردان في مساء نفس النهـار قائلاً أنها فرصة ملائمة ليعرفني على عليـّة القـوم من رجال المـال والسلطة خصوصاً وأن قريبي مغتـرب مشهـور في أفريقيا والأغنياء ذريةٌ بعضها من بعض.

كانت بدايـة السهـرة ممتعة وقفت مع قريبـي وزوجتـه نستقبـل الضيـوف ونبتسم ونضحك ثم ندعو البعض الى البار الكائن في الصالون الخلفي أو أذهب الى الستريو لأبدل أسطوانة بأخرى أو تنحني قريبتي الى أذني تهمس لي بطرفة ماجنة عن فلانة التي دخلت لتـوها أو عن فلان الذي نصافحه الآن "وهو مغترب في أستراليا" وماذا جـرى له مع زوجته في الصيف الماضي عندما غـرق في حب فتاة زحلاوية رحل معها في عزيمة ويك أند الى قبرص وبقيت زوجته وحيدة في الفندق حتـى اضطرت بـدورها أن تتعرف برجـل، إدعى صداقـة زوجها، إقترح بأن يؤنس وحشتها يوماً بنهاره وليله وعندما انصرف كان إسوارها وعقدها وخاتمها قد اختفوا باختفائه.

كذلك وعدتني قريبتي بأنها ستعرفني بفتاة والدها من كبار الأثرياء وقد أعد لها دوطة ضخمة إذا ما دخل العريس مزاجه وكانت جعبته مملوءة بالأحاديث الدسمة التي تسعد العقل وبالنكات الحمراء التي تثير الأحاسيس. بعد نصف ساعة من الإستقبالات والإبتسامات المصطنعة مللت دوري فانسحبت الى البار لأرتشف كأساً من النبيذ ثم أقبع في ركب قصب غارقاً في تأملاتي وأفكاري.

أتت قريبتي موراراً تحرضني على النهوض لتقدمني الى الفتاة الثرية صاحبة الدوطة التي يسيل لها اللعاب والى الممثل المصري الذي تحلم به نصف عذارى العالم العربي على الأقل، وكانت تقرصني مرة في كتفي وتجذبني مرة من ربطة عنقي ولكني رفضت بعناد وبقيت متشبثاً بركني القصبي وغارقاً في كأس النبيذ وتأملاتي الماورائية. لم أكن في إستقبالها عندما وصلت ولم تلحظها عيناي الغائمتان عندما دخلت غرفة البار وسكبت لنفسها كأساً من البيرة وجلست بقربي تحتسيه بتلذذ وشرود. تعثرت بطاولتها وأنا أعود الى البار لأستزيد نبيذاً وكدت أسقط أرضاً وأدلق كأسها ورغم ذلك إعتذرت بصوت هائم دون أن أكلف نفسي عناء النظر الى وجهها. وبينما كنت في طريق العودة وهي تهم بالوقوف إصطدم كتفي بكتفها فابتسمت لي معاتبة ولكني بقيت غارقاً في شرودي الشبيه بالبله فهزت رأسها وانصرفت.

بعد فترة ليست بالبعيدة سمعت أنغاماً تسيل من البيانو الذي عزفت عليه مراراً في بيت قريبي أنغاماً مهشمة تشبه تهويمات أحاسيسي الى حدّ بعيد. ولكن ما أسمعه الآن شيء مختلف فالأنغام تسيل متآلفة وكأنها عناق عشاق جذبهم الشوق بعد فراق طويل. وقفت لا شعورياً ومشيت باتجاه البيانو وأنا لا أرى إلا أصابع بيضاء ممشوقة تجري لاهثةً فوق المفاتيح. أحسست بطاقة كانت غافية في أعماقي وانطلقت... بدأت عيناي تنتقل من الأصابع الى الذراعين اللذين تخيلتهما جدولي نبيذ إنساب بين ضفتي كريستال بوهيمي. رفعت رأسي أكثر فإذا بي أرى شفتيها المرتعشتين... عنابة ناضجة أو وردة جورية تفتحت في باقة كردينيا أم لحناً أرجوانياً تائهاً في حديقة ياسمين، عندما لحظت إبتسامتها وكيف تلألأت بذلك الألق الذي يولد الطمأنينة ويزرع الأنس في نفس الرائي، أدركت معنى الجمال الشفاف

فــي تجليه الإنساني. تابعت رحلــة معــراجي فنظرت فــي عينيها فإذا بي أغرق في مهرجان ألــوان وأضــواء، غمرني دفءٌ يطــرد برودة الوحشة والإحساس بالخواء المخيف بأنس يولد عاطفة الرضى عن النفس حيث يشعر الإنسان برغبة في الذوبان فــي المجرى الكبير والتلاشي فــي هذا البحر اللامتناهي من النور... بعد قليل بدأت تنشد بصوب فيروزي:

يبكــي ويضحك لا حــزناً ولا فرحا
كعاشق خط سطراً في الهوى ومحا

إتكأت على حافــة البيانــو ولم أشعر إلا وصوتــي يعلــو مرافقاً الإيقاع، نظرت إليّ مندهشةً ويملأ حاجبها إستغراباً ولكن عينيّ كانت غائمتين تهيمان فــي متاهات بعيدة حتى أني لم أبــال بدهشتها وكأنها موجهــة الــى إنسان آخــر. وأخذ صوتي يكتسب رخــامة وينتظم بعــد أن بــدأ مهتــزاً يرتجف وأخذ صوتها يزداد شجواً وكأنه حنان ربيعي دافئ طيب الشميم.

قلبٌ تمــرس باللذات وهــو فتى
كبــرعم لامسته الريــح فانفتحا

أي شفافية لامستها شاعريــة الأخــطل وأي صوت مخملي يتهدل فتتأرجح معه أمان وأحــلام، وانتهت الأغنية وصفق الحضور ثم إلتف بعضهم حــول الآنسة في الوقت الذي تراجعت فيه الى غرفة البــار وسكبت لنفسي كأساً أخــرى وقبعت فــي زاويتي أرتشف وترحــل تهويماتي الى البعيد البعيد..

وتواجهنا مــرة ثانيــة ونحن نسكب الطعــام، كانت قريبتــي بقربي تقص علي بعض الطرائف وأنا أضحك بقهقهة مرتفعة ثم أعــود بدوري لأروي طرفةً فيها الكثير من البــذاءة التي يندي لها الجبين ولكن قريبتي أعجبت بالطرفة وكذلك زوجها حتى أنــه لم يبــق أحد مــن المدعويــن إلا واستمع إليها، ولكن الآنسة عندما كانت تسمع مــن والــدها وهــو يخبــرها ما قلت لم تضحك ولكنها ابتسمت إبتسامة إستعــلاء ساخــرة

ورفعت حاجبها مــرة أخــرى وهزت رأسها وكأنها تقول في سرها شابٌ أبله أفرط أهلــه فــي تدليلــه.

بعد قليل سالت الموسيقى من جديد وبدأ الكل يرقصون، كانت آنستي تنتقل كالفراشة مــن ذراع رجــل الــى ذراع آخــر... كنت ألحظها من البعيد وكلما تواجهت عينانا إبتسمت لهــا. رقصت مــرة واحــدة مع قريبتــي ثم جلست أرقب وأرتشف كأسي... لحظتها تتعمد الإقتــراب مني عدة مــرات حتى في آخر مرة ضربت ركبتها بركبتي فأحنت رأسها معتـذرةً وتخضب بيــاض وجهها المتلألئ بحمـرة جعلته بمثابة شمس فــي لحظــة شروقها. لــم أحــاول دعــوتها لمــراقصتي ولا حتــى التعــرف اليــها ومحادثتها، فــي نهايــة السهرة وعندما وقفنا نـودع الراحلينصافحتها قائلاً: تشرفت بمعــرفتك يــا آنسة، فضحكت بمــرارة ونظرت بدهشة وردت: ولكني لا أعتقــد أننا تعارفنــا. إبتسمت لها وأنا أغــرز نظراتي فــي قــاع عينيها:

- لم نتعارف بالأسماء ولكن.... وهنـا تدخلت قريبتي... تريد أن تقول أنكما تعارفتما بلغة العيــون والإبتسمامات... أيها الخبيث... وضحك والدها وانصرفا وهـو يردد... شابٌ ظريف... شابٌ ظريف. أما هي فكانت مندهشة كعادتها وحزينة بعض الشيء.

لقــاؤنا الثاني كان فــي باريس يـوم دعاني لحفلة تنكرية صديق ثري من كبار رجال الأعمال في نيجيريا، ضحكت عندما دعاني وقلت له:

- أي هرطقــة تقــوم بهـا يــا صديقي، نحن فــي نهــاية القــرن العشريــن فمــا لنــا وللأقنعة، أجابنــي بـأن الإنسان المقنع يتصرف بوحــي لاشعــوره واللاشعور أكثــر صدقـاً من الشعور واللاوعي أكثر إبداعاً من الوعي. قلت إذن سأمني النفس بسهرة ملذات إبداعية لم تخطــر ببــال أنس ولا جنّ ، قـال تعال وسترى أهوال العربان بأم عينــك فسينعقد لسانك مــن الدهشة.

وصلت الحفلة متأخـراً فكان الجميع غارقين في شطحاتهم اللاشعورية، رأيت واحداً يجلس بين أقــدام سيدة وقد شمر عن ساقيها البيضاوين وأمسك بفرشاة واستغرق في رسم عصفــور حــرص أن يكون ذيلــه ذهبياً. والسيدة تضحك مـرة وترتشف كأسها مـواراً، ثم تنحني فتشد الرسام من أذنــه أو تصفع مؤخرته. في زاوية أخرى وجدت

شاباً ينشد شعراً بعض أبيـاته لنـزار والبعض لمظفر النوار ويدعي أنه إستوحاه لتوه مـن جمـال الآنسة التي تقف أمامه ويطلب المكافأة قبلة طويلة ويحصل عليها فوراً ومع القبـلة كثيـر مـن المقبلات. سكبت لنفسي كأساً كالعـادة وأخـذت أجـول بين المدعوين أمتع عيني برؤية العجائب والغرائب. وفجأةً بدأ قيثارٌ يعزف... خلت أني سمعت هذا اللحن من قبل ولكن بإيقاع مختلف... أصغيت قليلاً فإذا بي أسمع همهمةً مع العزف... رندحة خافتة لبيت شعـر:

يبكـي ويحضك لا حـزنا ولا فرحـا

كعاشق خـط سطراً فـي الهوى ومحا

إقتربت من عازفة القيثار... كان الوجه مقنعاً والأجفان مسبلة في نصف إغماضة... لم أرَ إنسان العين... نظرت الى الشفتين فإذا بهما ترتعشان بلهفة ضامئة لهفة مألوفة عنـدي... إنقطعت الرندحة وارتفع الـرأس فالتقت عيوننا، نفس النور المؤنس يسيل دافئـاً مشعـاً. تابعت الآنسة العزف والرندحة وبدون قصد مني علا صوتي يرندح:

قلبٌ تمـرس باللذات وهـو فتى

كبـرعم لامسته الريـح فانفتحـا

إلتفتت إليّ مندهشة وارتعشت شفتاها أكثر تهم أن تتكلم ولكنها عادت لتخفض رأسها وتغرق في الصمت. كان الى جانبها رجلٌ أربعيني أصابعه إكتست بالخواتم الثمينة. حدست أنـه زوجها وأنـه مغتـوبٌ كبيـر وفـي بلد أفريقي لأن سمار أفريقيا المائج بالإزرقاق بلد على محياه كان متجهماً وفظاً أو هكذا بدا لي. هممت بأن أكلمها عدة مرات وأذكـرها بلقائنا الأول في بيروت وأسرد لها جميع التفاصيل ولكنـي تراجعت أمـام انحنـاءة رأسها الحزينة المنكسرة وتبـرج زوجها الفـارغ في تعاليه...

التقينا بعـد دقائـق أمـام البـار، إصطدمت يـدي بيدها ونحن نهم بتناول نفس القنينة رمقتني بنظـرة مستغيثة إنغرزت كسكين فـي سويداء قلبـي فارتجفت ثم إبتسمت لي فسرى دفـؤها في عروقي حتى غـلّ فـي العظام، قلت لها نحن لم نتعارف بالأسماء بعد ولكـن... وتدخل صديقي المضيف قائـلاً:

- لقـد تعارفتما بلغــة أخــرى غيــر لغــة الكلام أليس كذلك؟

وأطرقت بخجـل وأنا ألمح نفس الحمرة تسري في بياض ما ظهر من وجهها فأتذكر مرة أخــرى الشمس فــي لحظة شروقها. ولكــن زوجها الفــظ أتى ليمسكها بذراعها ويجــرها بعيداً ويـرحلا " قبـل أن نتعارف ".

لقاؤنا الثالث بعد ثلاث سنوات كان في بيروت، كنت ذات مساء أمشي متريضاً على كورنيش المنــارة أتــأمل الشمس فــي لحظة غروبها وأستعيد ذكريــات زمـن مضى وأعيش تهويمات مشاعــر سابقــة. وإذا بــي أسمع صوت إنفجار هائل لفحت وجهي حــرارة وهجــه وأحسست بالهــواء يقذف بي الى الوراء فانذهلت، ولكني وفي نفس اللحظة نظرت أمامي لأرى سيارة تنقذف الى الرصيف وفي وسطها إمرأة تصرخ. ركضت الى السيارة وكانت على بعد بضعة أمتار فقط، فتحت الباب بحركة لاواعية وسحبت المــرأة مــن وراء المقــود ثم حملتها الــى سيارتي القريبة وانطلقت بها الى مستشفى الجــامعة الأميــركية. كانت تصرخ وتئـن والدم يسيل من صدرها، لم أتبين وجهها بــل لم أستطع أن أميل بوجهي لأنظر اليها لأني كنت قد ضغطت على البوق وأخذت أقــود بسرعــة وعناء. وصلت بعــد دقائــق وحملت المــرأة بين ذراعي الى الطــوارئ، دخلت معها فظننــي الطبيب زوجــها، لم أتبين ملامحها إلا وهــي علــى سريــر العمليات، فتحت عينيها قبــل أن يسري المخــدر فــي دمــها... أمسكت بيدي وارتعشت شفتــاها تهم بالكلام وارتفــع حاجبها ولكنها سرعــان ما أغمضت عينيهـا فأخرجني الطبيب لتبــدأ العملية.

بعــد ثلاث ساعات كنت الــى جانبهــا فــي الغــرفة أمسك بيدها وهي نائمة وأداعب أصابعها... هممت عــدة مــرات بأن أقبّل يـدها وأمسح بها عيني ولكني خجلت من نفسي إنها مخــدرة وليس مـن حقي أن أستبيح حرمة إنسان فاقد الوعي. أتى الطبيب فطمأنني بأن الإصابــة ليست قاتلــة وأنها ستتماثــل سريعاً للشفاء فاستبشرت خيراً وشكرته. عندما أخذت تتململ لتصحو مــن غيبوبتها توهمتها تتمتم:

- حبيبي الذي لا أعرف إسمه، حبيبي الذي لا أعرف إسمه.

إنحنيت علــى أصابعها مدغدغـاً إياها بشفاهي... عندما فتحت عينيها ونظرت كانت الدمــوع تسيل مــن الأجفــان.. إنحنيت مـرة أخرى وقبلتها في جبينها ومسحت على شعرها وأنا أبتسم... ضغطت على يــدي أكثــر وقالت:

- نحــن لم نتعارف بالأسماء، ولكــن..... أجبتها:

- ولكنك تعيشين بيــن أضلعي منــذ زمــن بعيــد... حتى قبل أن أولد وتولدين... هذا الأنس فــي عينيك... هــذه الرعشة فــي شفتيك... هذا الصوت الدافئ في بحته.... يا آنستي إني أحبــك من قبــل أن أفكــر بالحب.

وازداد ضغطها على يــدي ثم شرقت بدموعها وهــي تقــول:

- يا صديقي... يا حبيبي... يا حنيني الغامض الى عالم آخــر... إنــي.... إنــي...

وانحنيت أقبلها فــي شفتيها... ثم همست والدموع تلمع فــي عيني.

- حدست أنــك مرتبطة بعهد وأنــي رجــل خائب.

-لا تقل هذا فينسحق قلبي الى الأبد... ستبقى في خاطري نوراً يضيء عتمة عمري ويدفئ برودة وحشتيلن أنساك أبداً ولكن... وأخذت تنشج بمرارة، رجوتها أن تكف فدموعها تجلدني حتى عظامي وقلت لها ولكــن ماذا؟ أرجــوك قولي لي ولكن ماذا؟

- أريد منك خدمــة... خذ رقم هاتفي وكلم زوجي وليحضر معه الطفــل.

أدركت لحظتها أنه لا يحــق لــي أن أقتحم حيــاة هذه السيدة، وكلمت زوجها وعدت فقبلت جبينها ثم ودعت بدمــوعي المغرورقة ورأسي المطــرق وانصرفت.

كمال يوسف سري الدين

بزبدين في ٤-١١-٨٨